المدرسة الظاهرية

أرسل الأستاذ سالم الكرنكوي رسالة يقول فيها : انه شرع في تحقيق كتاب تاريخ اليونيني الذي هو ذيل على مرآة الزمان ، وانه وجد فيه نصاً يتعلق بالمدرسة الظاهرية في دمشق (مقر دار الكتب العامة) وقد أرسله راغباً نشره في مجلة المجمع العلمي العربي ووضع اشارات على بعض كلمات غامضة فيه . ولما كان اصلاح هذه الكلمات يتطلب نشر نص آخر من وقفية المدرسة المذكورة فقد أحببت جمع ما اطلعت عليه في هذا الموضوع من النصوص مع نص الأستاذ الكرنكوي وضمها جميعاً في مقالة واحدة وهذه هي المقالة :

* * *

قامت المدرسة الظاهرية على دار — من أعظم دور دمشق واكثرها شهرة — تدعى بدار العقيقي اشتهرت في العهد الفاطمي بنزول الأشراف العلويين فيها . فأحمد بن الحسين العقيقي المتوفى سنة (٣٧٨) الذي تنسب اليه هذه الدار علوي من كبار اشراف دمشق واجوادها [١] كما انه نزلها الشريف العلوي ابو طاهر حيدرة بن ابراهيم بن ابي الجن الذي قتله الأمير السفاح بدر الجمالي سنة (٤٦٢) [٢] ثم نزلها آخر قاض لدمشق من قبل الفاطميين وهو الشريف العلوي جلال الدولة ابو الحسين احمد بن علي المتوفى سنة (٤٦٨) [٣] .

والى هذه الدار التجأ الخطيب البغدادي فاستجار بالقاضي المذكور خوفاً من بطش الأمير بدر الجمالي المذكور فأنجاه من أذاه [٤] .

---

(١) النجوم الزاهرة (٤ / ١٥٣) . (٢) المصدر نفسه (٥/٨٠ و ٨٥) .
(٣) المصدر نفسه (٥ / ١٠٢) . (٤) البداية والنهاية (١٢ / ١٠٢) .

وكأن هذه الدار اصبحت من الشهرة والعظمة ما يجعلها مرشحة لنزول العظماء والكبراء فيها . فمذ حلت الأسرة الأيوبية مدينة دمشق سكن هذه الدار كبير الأسرة نجم الدين ايوب والد السلطان صلاح الدين واخيه الملك العادل .

ولما دخل صلاح الدين الأيوبي دمشق فاتحاً لها سنة (٥٦٩) بعد وفاة السلطان نور الدين نزل بدار والده ايوب المعروفة بدار العقيقي[١] . كما ان الملك العادل نزلها حينما دخل دمشق سنة (٥٨٩)[٢] .

وقد يكون حبه الشديد لهذه الدار دفعه لأن يبني تجاهها — من جهة الغرب على بعد خمسة امتار منها — مدرسة وقبة لدفنه . فلما توفي سنة (٥٩٧) حفظت جثته بالقلعة حتى تم بناء مدرسته وقبة قبره فنقل اليها سنة (٦١٩)[٣] لتظل روحه على الدار التي احبها كثيراً ، وعاش فيها امداً طويلاً . كما ان السلطان صلاح الدين دفن تحت قبة لا تبعد عن هذه الدار اكثر من ثلاثين متراً ، ومثله الملك الأشرف ابن الملك العادل الذي دفن على مقربة من عمه صلاح الدين ولما مات مظفر الدين صاحب اربل زوج ربيعة خاتون اخت صلاح الدين والعادل رجعت الى دمشق وسكنت في دار العقيقي دار ابيها ايوب حتى توفيت سنة (٦٤٣) وهي صاحبة المدرسة الصاحبية بسفح قاسيون[٤] .

وبعد انقراض الدولة الأيوبية انتقلت هذه الدار الى ملك الأمير فارس الدين اقطاي المستعرب الأتابك . ومن ورثته اشتريت هذه الدار لجعلها مدرسة ومدفناً للملك الظاهر بيبرس[٥] .

(١) تاريخ ابي الفدا طبع مصر (٣ / ٥٦) .
(٢) النجوم الزاهرة (٢٢٥/٦) .
(٣) النجوم الزاهرة (١٧١/٦) .
(٤) القلائد الجوهرية .
(٥) تعليقات النجوم الزاهرة (٢٦٣/٧) عن ذيل مرآة الزمان ، وعيون التواريخ .

المدرسة الظاهرية

يحدثنا ابو المحاسن ابن تغري بردي بما يلي : كان [الظاهر] اوصى ان يدفن على الطريق السابلة قريباً من داريا وان يبنى عليه هناك فرأى الملك السعيد أن يدفنه داخل السور فابتاع دار العقيقي « بثمانية واربعين الف درهم » نقرة [1] وامر ان تغير معالمها وتبنى مدرسة للشافعية والحنفية [2] . ويقول صاحب عيون التواريخ «بستين الف درهم»[3] وينقل عبدالحي ابن العماد بأنها اشتريت «بسبعين الف درهم»[4] .

وهنا يجدر بنا ان نتساءل : لِمَ لَمْ يتبع الملك السعيد وصية ابيه بل دفنه داخل السور بدار العقيقي ؟

الظاهر ان ذلك العمل كان لأمر سياسي . فبيبرس وهو مملوك من مماليك الأيوبيين بعد ان استولى على الملك تتبع البقية الباقية من الأيوبيين الصالحين للملك فقتلهم . ثم قطع على هذه الأسرة طريق المطالبة بالملك فجدد الخلافة العباسية وجعل مقرها مصر . ثم جعله الخليفة العباسي نائباً عنه في ادارة البلاد فكان حكمه لها شرعياً .

فدفنُ الملك السعيد لأبيه في دار العقيقي دار الأسرة الايوبية في بقعة تحيط بها قباب اعاظم الملوك الأيوبيين كالملك العادل ، والسلطان صلاح الدين ، والملك الأشرف يرمز في ذلك الى ان الملك الظاهر هو وارث هذه الأسرة الحاكمة ، وان له من شرعية الملك وابهته مثل ما لهؤلاء الملوك .

ولقد جود ابنه السعيد في تحسين بناء مدرسته ومدفنه حتى جعلها لا تقل عن مدافن العادل وصلاح الدين والأشرف المحيطة بالظاهرية روعةً وجلالاً .

(١) فسرها القلقشندي في صبح الأعشى (٤٤٣/٣) فقال : « الدراهم النقرة » وأصل موضوعها أن يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس . وتطبع بدور الضرب بالسكة السلطانية على نحو ما تقدم في الدنانير . ويكون منها دراهم صحاح وقراضات مكسرة .. والعبرة في وزنها بالدرهم وهو معتبر باربعة وعشرين قيراطاً . وقدِّر بستّ عشرة حب من حب الخروب فتكون كل خروبتين ثمن درهم . وهي اربع حبات من حبة البُر المعتدل والدرهم من الدينار نصفه وخمسه . وان شئت قلت سبعة أعشاره فيكون كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم .

(٢) النجوم الزاهرة (١٧٦/٧) . (٣) نفس المصدر « التعليقات » .

(٤) شذرات الذهب (٣٥٠/٥) .

انشاء الظاهرية

فصل لنا ابن تغري بردي بعض التفصيل عن بناء هذه المدرسة في حوادث سنة (٦٧٦) فقال :

كان الملك السعيد أمر ببناء مدرسة لدفن ابيه فيها حسب ما أوصى به والده ، فنقل تابوت الملك الظاهر بيبرس في ليلة الجمعة خامس شهر رجب من قلعة دمشق الى التربة المذكورة داخل باب الفرج قبالة المدرسة العادلية . والتربة المذكورة كانت دار الشريف العقيقي فاشتريت وهدمت وبني موضع بابها قبة الدفن ، وفتح لها شبابيك على الطريق . وجعل بقية الدار مدرسة على فريقين : حنفية وشافعية . وكان دفنه بها في نصف الليل ، ولم يحضره سوى الأمير عز الدين ايدمر الظاهري نائب الشام . ومن الخواص دون العشرة لا غير [1] .

ويتمم لنا اليونيني وصف هذه المدرسة من وقفيتها التي بخط عز الدين بن شداد فيقول : وقف الملك السعيد ... المدرسة المذكورة والقبة مدفناً ، وباقيها مسجداً لله تعالى برسم الصلوات وقراءة القرآن العزيز والاعتكاف . وباقي الدار مدرستين احداهما شرقي الدار هي للشافعية ، والأخرى قبلي الدار الى جانب القبة وهي للحنفية ، ودار حديث قبلي الايوان المختص بالشافعية .

وهذا النص يعطينا صورة عن هيأة المدرسة الداخلية وهي صورة قريبة من الكمال تصف لنا الجهة القبلية والشرقية من المدرسة . وقد جهلت علينا هيأة الجهة الشمالية التي نظن أنها كانت محنوية على حجرات للسكن وبيوت للطهارة . أما الجهة الغربية التي فيها باب المدرسة فواضح من هيأة التصميم انها كانت خالية من البناء عدا الجدار الذي يفصل المدرسة عن الطريق .

---

(١) النجوم الزاهرة (٢٦٣/٧) .

النصوص المتعلقة بالمدرسة الظاهرية

حينما نتطلب القوانين الداخلية للمدارس الاسلامية لا نجد سبيلاً الى ذلك الا عن طريق الوقفيات ، ومن المؤسف ان وقفيات المدارس اخفيت عن الانظار بعد ان قام نظار المدارس باختلاس اوقافها ، ولكن كثيراً ما تواتي الصدف بالاطلاع على بعض الوقفيات . كما ان بعض كتب التاريخ وكتب الفتاوى الفقهية تشير في بعض الأحيان الى جزء من نصوص الوقفيات . وهذه بعض النصوص التي اطلعنا عليها مما يتعلق بالمدرسة الظاهرية :

« النص الأول » وهو الذي ارسله الأستاذ سالم الكرنكوي

وقف الملك السعيد لتربة والده الملك الظاهر بيبرس

وفي سادس عشر ذي القعدة وقف الملك السعيد — وهو بخط عز الدين محمد ابن شداد بإذنه وتوكيله وحضوره — المدرسة المذكورة والقبة مدفناً وباقيها مسجداً لله تعالى برسم الصلوات وقراءة القرآن العزيز والاعتكاف وباقي الدار مدرستين احداهما شرقي الدار هي للشافعية والأخرى قبلي الدار الى جانب القبة وهي للحنفية ودار حديث قبلي الايوان المختص بالشافعية

ووقف على ذلك جميع قرية الضرمان (١) في شغل بانياس وجميع قرية ام نزع (٢) من الحيدور (٣) وبهمين (٤) من بيت رامة من الغور (٥) ومزرعتيها الذراعة وشويهة (٦)

(١) كذا في الأصل . والصواب : الصرمان . اما مرجعنا في التصحيحات التي سنشير اليها فهي الكتابة المرقومة على أعلى باب الظاهرية وهي بخط فني جميل واضح وقد نشرناها في هذا المقال تحت عنوان النص الرابع والخامس . وورد تحديد قرية الصرمان في « كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا » طبع دمشق سنة (١٣٤٣) ص (٣٩) .

(٢) كذا في الأصل. والصواب: امزرع. وردت مرسومة على اعلى باب الظاهرية هكذا «امزرع».

(٣) الصواب : الجيدور بالجيم المعجمة احدى مناطق حوران .

(٤) الصواب : وسهمين .

(٥) يراد بالغور الأراضي المنخفضة حول بحيرة طبريا .

(٦) الصواب الزراعة وسويئة .

وتسعة عشر قيراطاً ونصف قيراط من قرية الأشرفية من الغوطة وبساتين ابن سلام الثلاثة وبستان السبتية [١] وطاحونه ، والحمام على الشرف الأعلى الشمالي [٢] وكرم طاعة من بلد بانياس وخان بنت جزوخان بحكر الفهادين [٣]

ورتب في التربة اماماً شافعياً وجعل له في كل شهر ستين درهماً زمامين [٤] من عتقاء الملك الظاهر ناظرين في مصالح التربة وحفظ ما بها من الآلات لكل واحد منهما في الشهر ستين (؟) درهماً ومؤذناً له في الشهر عشرون درهماً وستة عشر مقرئاً لكل واحد منهم خمسة وعشرون درهماً منهم نفسان يزاد كل واحد منهما عشر دراهم

ويشترى في كل شهر شمع وزيت وما تحتاج اليه التربة من الفرش والقناديل وآلات الوقيد بمبلغ ثمانين درهماً .

ويرتب في كل [من المدرستين] [٥] مدرساً (؟) له في الشهر مائة وخمسون درهماً ، ومعيدان لكل واحد منهما اربعون درهماً ، وثلاثين (؟) فقيهاً لأعلاهم عشرين (؟) درهماً ولأدناهم عشرة دراهم .

---

(١) المرقوم فوق باب الظاهرية السبتية بعد السين ثلاثة اسنان تحت السن الأول نقطة وفوق الثالث نقطتان والسن الثاني مهمل من النقط ولذلك يرجح ان الصواب فيه (بستان السبتية) ومعنى السبتية في دمشق ان الناس في أيام الربيع يخرجون الى البساتين للنزهة والقصف يوم السبت ولعل هذا البستان كان يقصد في ذلك اليوم خاصة وقد أشار الى السبتية في دمشق عدد من المؤرخين.

(٢) الشرف الأعلى الشمالي هو المكان الذي تقوم فيه مدرسة التجهيز الأولى في دمشق وقد أشرنا الى مكانه في مخطط الصالحية .

(٣) نص الكتابة على باب الظاهرية « وخان ببيت حنا وحانوت جوار بساتين ابن سلام وخان يعرف بالاصطبل ظاهر دمشق » والراجح ان صواب نص اليونيني أن يكون هكذا « وخان ببيت حنا وخان بحكر الفهادين » والراجح ان خان حكر الفهادين هو نفس الخان المعروف بالاصطبل ظاهر دمشق . اما حكر الفهادين فهو في الشرف الشمالي الأعلى شرقي مدرسة التجهيز فقد جاء في تاريخ ابن خلكان (١١٩/١) ان شمس الملوك دقاقا توفي سنة (٤٩٧) ودفن في مسجد بحكر الفهادين –بظاهر دمشق– الذي اعلى نهر بردا . وهذا المسجد بلا شك هو المعروف بالخانقاه الطواويسية راجع خطط الشام للأستاذ كرد علي وتنبيه الطالب ومختصره للعلموي ومخطط الصالحية فقد أوضحنا فيه موقع هذه الخانقاه .

(٤) الصواب وخادمين .

(٥) زيادة اقتبست من المقام .

ويصرف فيها [ما] تدعو الحاجة اليه من اجرة ساقي[١] واصلاح قني[٢] وغير ذلك وثمن الزيت ومسارج وقناديل وآلة الوقيد بالمدرستين في الشهر اربعون درهماً وشاهداً ومشارفاً وغلاماً[٣] وجابياً وغيرهم لكل منهم ما يراه الناظر . والنظر للملك السعيد مدة حياته ثم لولده وولد ولده

وفي جمادي الآخرة سنة ٦٧٧ سير الملك السعيد برسم تتمة العمارة ومصالح الوقف اثني عشر الف دينار

وفي يوم السبت ثالث ذي القعدة سنة ٧٧ وقف عماد الدين محمد بن الشيرازي بطريق الوكالة عن الملك السعيد جميع احد عشر سهماً وربع سهم وثمن سهم من قرية الطرة من ضياع الجبيل من اقليم اذرعات من عمل دمشق الى المدرستين والتربة بعد ان انتقلت الحصة الى الملك السعيد على ثماني قرى مضامين[٤] وتقر[ر] لكل منهم خمس وعشرون ويزاد لكل مدرس رطلان خبزا مثلثا بالدمشقي ولكل خادم من الخادمين ولكل نفر بالتربة والفقهاء والمؤذنين والفراشين والبوابين في كل يوم ثلثي رطل خبزا اسوة فراشي التربة ويصرف الى مباشر الأوقاف والشاهد والمشارف لكل واحد رطلا خبز[ا] واشهد الحكام على نفوسهم وسجلوا بثبوت ذلك .

في يوم الاثنين حادي عشر ذي القعدة سنة ٧٧ شرع في عمل اعزية الملك الظاهر بالديار المصرية وتقر[ر] ان يكون احد عشر يوما في احد عشر موضعاً الخ .

(١) تقطع مياه انهر دمشق كل عام بضعة ايام لرفع مايتراكم في مجاريها من الأوحال كما تقطع أيضاً ايام الحروب حينما تحاصر دمشق ولذلك تقوم السقاة بحمل الماء الى الدور والمساجد والمدارس ونظراً لتوخم ماء الأنهر فان سقاة خاصة يجلبون ماءً للشرب من العيون والآبار النظيفة . وهناك نوع من السقاة يكون في المساجد والمدارس يحملون وعاءً من نحاس او فخار او جلد وطاسة نحاس يمرون على الجالسين ويسقونهم ، وقد يضعون في تلك الآنية ثلجاً او نوعاً من العطور وكثيراً ما يوقف بعض محبي الخير اوقافاً على مثل هذه الأعمال . وجميع ما ذكرناه بطل في عصرنا .

(٢) جمع قناه والمراد بها ما يوصل الماء الى الدور وتدعى في عصرنا « قساطل » وهي أنابيب من فخار تبنى على شكل مخصوص .

(٣) الصواب وخادما . (٤) الصواب مضافين .

« النص الثاني » منقول من فتاوى السبكي (٢/٨) طبع مكتبة القدسي ونصه :

نسخة فتوى في دار الحديث الظاهرية بدمشق

ما تقول السادة العلماء في واقف وقف وقفاً على الجهات والوجوه والمصالح التي يأتي ذكرها وتعيينها في هذا الكتاب فيبدأ من اليه النظر بعمارة الموقوف وترميمه واصلاحه وما فيها بقاء اصله وسبب النماء والمزيد . وما فضل كان جارياً على الوجوه والمصارف الآتي ذكرها . فيصرف في كل شهر ثلاثون في ثمن زيت وحصر ومصابيح وترميم . ويصرف ستون لشيخ الحديث ، وعشرون للقارئ ، ومائة للطلبة ، وعشرون للخازن ، واربعون للقيمين ، ومائة وخمسون لستة قراء يقرؤن بالتربة المجاورة لها .

وذكر مصارف الى ان قال :

ومال هذا الوقف المعين في هذا الكتاب المتقدر الصرف في مصارفه المذكورة كمال اوقاف المدرسة والتربة المذكورتين

وقد تلفظ هذا الوكيل الواقف المسمى : بوقف هذا الموقوف المعين في هذا الكتاب على الجهات المعينة والمصارف المذكورة في هذا الكتاب .

بدأ من ذلك بتقديم ما هو مقرر لمصالح القاعة المذكورة ، وما هو مقرر في هذا الكتاب من الجامكيات على ما عين اعلاه فان نقص عن ذلك قدم ما هو معين لمصالح القاعة المذكورة في هذا الكتاب على ما فضل فيه ، وما هو معين لشيخ الحديث النبوي وقارئه ومستمعيه المشار اليهم اعلاه والقيمين المذكورين اعلاه « فان فضل بعد ذلك فاضل صرف في الوجوه المبينة ، والمصارف المعينة في هذا الكتاب على الوجه المشروح فيه يجري ذلك كذلك الى يوم القيامة .

فهل اذا فضل من ريع الموقوف شيء بعد تكميل ما عين اعلاه من الجامكيات والجرايات يكون لمن عين اعلاه من ارباب الوظائف المذكورة اعلاه ام لغيرهم

من ارباب الوظائف بالمدرسة الظاهرية من الفقهاء والمتفقهين والمدرسين والمعيدين وغيرهم ام لا ؟ افتونا مأجورين رحمكم الله .

أجاب الشيخ الامام رضي الله عنه ومن خطه نقلت : ليس لغيرهم من ارباب الوظائف بالمدرسة المذكورة من الفقهاء والمتفقة والمدرسين والمعيدين وغيرهم شيء منه بل هو لجهة وقف دار الحديث المذكورة تختص به عن المدرسة ليس للمدرسة ولا لأهلها منه شيء .

والفاضل عن معاليم اهل دار الحديث المذكورة الآن بعد تكميلها دالٌّ بحسب الحال الآن ان يرد عليهم على نسبة معاليمهم . ويحتمل ان يقال : يحفظ لهم ولمن يتجدد مكانهم ...

واما صرفه للمدرسة او لأحد من اهلها فممتنع قطعاً .

* * *

« النص الثالث » منقول من فتاوى السبكي (٤٨٨/١)

(مسألة) أوصت ام الملك السعيد ان يوقف عنها . ووقف عنها وقف ثلثاه على التربة والمدرسة الظاهرية بدمشق . والثلث على ستة خدام معينين . ومن مات منهم نزّل الناظر مكانه خادماً من عتقاء الظاهر ولاء السعيد . فمات الستة ونزل مكانهم الى ان لم يبق من عتقاء الظاهر ولاء السعيد الا خادم واحد فما الحكم في ذلك ، والشرطُ انه اذا انقرض الخدم رجع الى التربة والمدرسة ؟

(فاجبت) ان الخادم المذكور اذا نزله الناظر جاز صرف الجميع اليه ولا تستحق المدرسة والتربة شيئاً الا بعد انقراضه . ومستندي في ذلك ان معناه عام . والخادم الباقي يصح ان يكون عوضاً عن الستة . وقوله « اذا انقرضت الخدام كان للمدرسة » يشمل الخدام الستة وجميع من كان خادماً من عتقاء الظاهر او السعيد . وليس من شرط تنزيله موضع الستة ان يكون عن موتهم بل سواء أكان كذلك ام بعد مدة . ولو توسط بينهم جماعة صح ان يكون هذا الآن منزلاً مكان الستة الأولين والله اعلم .

« النص الرابع » وهو ما كتب على باب الظاهرية من أعلاها · ولما كان بابها عظيماً · مدخله على هيأة دهليز صغير وهو مؤلف من ثلاث جدران : قبلي وبه تبتدأ الكتابة ، وشمالي وفيه تنتهي ، وشرقي ومن جهته يدخل الانسان اليها كان كل سطر من أسطر الكتابة مؤلفاً من ثلاثة أجزاء وضعنا فاصلاً بين كل جزء منها على هذه الصفة | كما أننا جعلنا لكل سطر رقماً · وهذا نص ما كتب :

(١) بسم الله الرحمن الرحيم · الذي وقفه على هذه التربة والمدرستين ودار | الحديث النبوي الحصة من قرية الطرة من عمل اذرعات ومبلغها احد عشر سهما وربع وثمن سهم من اصل اربعة وعشرين سهما | وقرية الصرمان بكمالها من اعمال الشعرا [1] وقرية امزرع بكمالها من عمل نوى | (٢) والحصة من قرية بيت الرامة وقرية سوية وقرية الزراعة من الغور ومبلغها سهمان من | أصل اربعة وعشرين سهما والحصة من الأشرفية من عمل المرج من بلد دمشق ومبلغها تسعة عشر سهما ونصف من اربعة وعشرين والبساتين الثلاثة المعروفة | بابن سلام ظاهر دمشق من اراضي السهم الشرقي بسفح قاسيون (٣) بستان يعرف بالسبتية ظاهر دمشق على الشرف الشمالي وطاحون السبتية الملاصقة | ة للبستان المذكور وكرم يعرف بكرم طاعة بمدينة بانياس وخان ببيت حنا وحانوت جوار بساتين ابن سلام وخان يعرف بالا | صطبل ظاهر دمشق والسفل الكامل من قيسارية الشرب وذلك في سنة ست وسبعين وستمة (كذا) ·

* * *

« النص الخامس » وهو سطران تحت الأسطر الثلاثة المتقدمة وهما :

(١) بسم الله الرحمن الرحيم امر بانشاء هذه التربة المباركة وا | لمدرستين المعروزتين المولى السلطان الملك السعيد ابو المعالي محمد بركة قان بن السلطان الشـ | ـهيد الملك الظاهر المجاهد ركن الدين ابو الفتوح بيبرس (٢) الصالحي

(١) هي ما تدعى اليوم بقضاء القنيطرة · راجع صبح الأعشى (١٠٤/٤) ·

أنشأها لدفن والده الشهيد ولحق به عن قريب I فاحتوى الضريح على ملكين عظيمين ظاهر وسعيد وامر بانهاء عمارتها السلطان الملك المنصور سيف الد I نيا والدين قلاوون الصالحي قسيم امير المؤمنين خلد الله سلطانه

* * *

« النص السادس » على باب القبة المدفون فيها الملك الظاهر وهو : (١) بسم الله الرحمن الرحيم . الذي استجد ابتياعه واوقف على الجهات المعينة في كتاب وقف ذلك الفاخورةُ بدرب (٢) الفواخير والبيوت طباقها والحصة من قرية صهيا ومبلغها ثلثي [كذا] ثمن سهم من اربعة وعشرين . الاهراء الثلاثة وطباقها بالمربعة . الحصة من قرية الاصطبل[1] بالبقاع (٣) العزيزي ومبلغها عشرة اسهم وربع سهم وربع ثمن سهم من اربعة وعشرين سهما والحصة من بيت الرامة وسويجة والزراعة (٤) ومبلغها سهم واحد من اربعة وعشرين سهماً وذلك تكملة الثمن من القرية المذكورة

درس للنصوص السابقة

ان من يدرس الحركة الفكرية في العصر الأيوبي لا بد له وان يراقب هذه الحركة في عصر المماليك البحرية ذلك العصر المخضرم بين العصرين : الأيوبي ، والمماليكي الشركسي .

فعصر الظاهر بيبرس ثم قلاوون يختلف كل الاختلاف عن بقية عصر المماليك ذلك العصر الذي انحط فيه الفكر العربي الى مدى بعيد .

فهو وان انحط عن العصر الأيوبي فان انحطاطه كان نسبياً . لأن هؤلاء المماليك اكتسبوا بعض تربية راقية من ملوك احرار مهذبين لم يمسهم الرق ، كما كان علماء عصرهم ممن درسوا في العهد الأيوبي وحصلوا النهضة العلمية الأيوبية .

(١) قرية صغيرة لا تزال معروفة بالبقاع وهي قبلي قرية « بر الياس » فاذا ذهب الانسان من دمشق الى شتورا تكون قرية «برالياس» عن يمينه وقرية الاصطبل عن يساره قبيل شتورا .

لذلك كان من المحتم علينا ان نراقب هذا العصر بدقة لننظر الانحطاط الفكري الذي ابتدأ في عهدهم حتى وصل الى الهوة السحيقة في أواخر العهد المماليكي

واذا شئنا ان نبحث ذلك فعلينا دراسة «المدرسة الظاهرية موضوع بحثنا» التي هي من أولى المعاهد العلمية في أول العصر المماليكي .

اذا رجعنا الى النصوص المتقدمة نجد ان المدرسة الظاهرية تتألف من اربعة أقسام:

«القسم الأول» القبة . وهي تختص باربعة اشياء : (١) دفن الملك الظاهر وولده السعيد (٢) اقامة الصلوات فيها بإمام شافعي (٣) قراءة القرآن (٤) الاعتكاف

أما ملاك هذا القسم مع رواتب موظفيه الشهرية فهو كما يلي :

درهم	الموظف	عدد الموظفين
٦٠	امام شافعي(١)	
٦٠	خادم	٢
٢٥	مقرئ	١٦ منهم شخصان يزاد لكل واحد منهما عشرة دراهم
٨٠	نفقات زيت وشمع وفرش وقناديل وآلات الوقيد(١)	

«القسم الثاني مدرسة للشافعية» ويتألف ملاكها من :

١٥٠	مدرس	١
٤٠	معيد	٣ لكل منهم
٢٠	فقيه	٣٠ لكل منهم لأعلاهم مرتبة
١٠	لأدناهم مرتبة	
	شاهد مشارف خادم جابي	يحدد رواتبهم الناظر ويعين غيرهم ان وجد لزوماً لذلك
٤٠	ثمن زيت ومسارج وقناديل وآلة وقيد	

(١) ارجع الى نص اليونيني .

« القسم الثالث مدرسة للحنفية » وملاكها كملاك الشافعية

« القسم الرابع دار الحديث النبوي » ويتألف ملاكها من :

درهم

٦٠ شيخ حديث

٢٠ قارئ حديث

٢٠ خازن

٤٠ قيمين

١٠٠ طلبة لم يعين عددهم والراجح انهم عشرة او عشرون

والظاهر ان مثل هذه المخصصات والجرايات لم تكن مما يقوم بكفاية الموظفين فقد اوقفت اوقاف أخرى ضمت للأوقاف الأولى وتقرر لكل من موظفي التربة (اي قبة الظاهر) والمدرستين خمسة وعشرون درهماً . ولكل مدرس رطلان من الخبز ، والى بقية الموظفين ثلثا رطل ، والى كل من مباشر الأوقاف والشاهد والمشارف رطلان . (راجع آخر النص الأول) .

ويفيد النص الثالث بأن ام الملك السعيد اوقفت وقفاً آخر أيضاً . ثلثاه على التربة والمدرسة الظاهرية ، والثلث على ستة خدام من عتقاء الظاهر ولاء ابنه السعيد .

ولسنا ندري ان كان هذان الوقفان الأخيران يتناولان دار الحديث النبوي أم لا . كما ان النص الثاني يفيد بان مالية دار الحديث الظاهرية مستقلة تمام الاستقلال عن المدرستين والتربة . وانه حينما يزيد شيء من مالها يصرف عليها وعلى موظفيها ولا يعطى شيء منه الى احد من اصحاب التربة او المدرستين .

اما ما يقدم من الملاحظات عن الانحطاط العلمي إثر انقراض الدولة الأيوبية فنحن نراه بادياً في تربة الملك الظاهر . فبينما نرى في ترب ومدافن الملوك الأيوبيين تخصيص شيخ اقراء من كبار العلماء يقوم بتدريس علوم القراءات

وما يتعلق بها من علوم اللغة العربية كتربة السلطان صلاح الدين والعادل والأشرف وام الصالح التي تولى فيها علم الدين السخاوي ومحمد بن مالك النحوي وابو شامة مؤلف الروضتين ومحمد بن الجزري وامثالهم ممن لهم مكانتهم في العلم والتأليف اذا بنا نرى تربة الظاهر اقتصرت على قراء فقط يقرؤون القرآن بصورة تقليدية لا أثر للدراسة فيها. وهكذا انقطعت حلقة الاقراء في ترب الملوك من هذا العهد، واصبحت الترب تمتُّ الى صور دينية شكلية لا عمل للفكر فيها.

«ثانياً» جعل مسجد المدرسة في قبة الدفن وهذا امر كرّهه بعض الفقهاء ولم يسبق لنا ان رأينا قبل هذا مدرسة خالية من مصلى مستقل لا اثر للدفن فيه.

أما وضع المحاريب في المدافن والقبب فهي امور طرازية تشير الى اتجاه القبلة ليس الا

«ثالثاً» توجيه الأنظار الى احترام القبور وتقديسها ويظهر هذا بادياً في مخصصات التنوير وما الى ذلك في التربة هو اكثر مما هو في مدرستي الشافعية والحنفية، كما اننا نرى عدداً كبيراً عينوا خدماً للتربة يضاف الى ذلك المبالغ الباهظة المصروفة على الفسيفساء وزخرفة القبة.

وهذا كله يعطينا فرقاً محسوساً بين عصر الأيوبيين الذين كانوا يحملون ثقافة عالية وينظرون الى حقائق الأمور، وبين عصر المماليك الذين كانوا يحملون عقولاً ساذجة بسيطة لا تدرك إلا ظواهر الأمور. أما ما يتعلق باسماء المدرسين فيها وتراجمهم فيرجع في ذلك الى تنبيه الطالب للنعيمي ومختصره للعلموي، واما وصفها البنائي فيحتاج الى مقال آخر.

محمد احمد دهمان